إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفى المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذى يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾

تحدَّث الحقّ سبحانه وتعالى فى آية سابقة عن المبذِّرين ، وحذَّرنا من هذه الصفة ، وفى هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته فى الحياة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم فى المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندى ، وله علىَّ أياد لا تُعَد ، أى : أن نعمه علىَّ كثيرة ؛ لأنها عادة تُؤدّى باليد ، فقال : لا تجعل يدك التى بها العطاء (مَغْلُولَةً) أى : مربوطة

إلى عنقك ، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

فالنهى هنا عن كل البَسْط ، إذن : فيُباح بعض البسْط ، وهو الإنفاق فى حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقى هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذى سبق الحديث عنه .

فبذّر : أخذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهىّ عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة فى عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشىء بالقدر الذى يسمح بتفلّت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَرَ] .

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقد أتى هذا المعنى أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

أى : اعتدال وتوسُّط .

إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك ، ولكن بعض البَسْط الذى يُبقِى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقىَ بحياتك .

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال فى الإنفاق، وقلنا: إن الإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة، ويُسهم فى إنمائها ورُقيّها، على خلاف القَبْض والإمساك، فإنه يُعرقل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة، ويعوق حركتها.

إذن: لابُدّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِى على شىء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقى به، وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس.

فالمبذر والمسْرف تجده فى مكانه، لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقِى على شىء؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة، ونُوفّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى.

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ أوضحنا أن وضْعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء.

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها؛ لذلك قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..(٩٥)﴾ [النساء]

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : أتى بفعل يُلاَم عليه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما ملُوم لتصرُّفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت ملُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظِّم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقى من دخلك على شىء لتحقق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتِّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، ذلك أنّى جَوَاد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

الله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خَلْقه بقدَر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو فى المجتمع بأهميته ودوره فى الحياة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة فى مجال ، وأنا صاحب موهبة فى مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذى ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه الله لأقل المهن التى يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدَّ له منها لكى يزاول حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد فى حركة الحياة أن يتفضَّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسم له فى الحالتين ، وأن يسير فى حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذى ضُيِّق عليه فى الرزق يريد أنْ

يعيشَ عـيشة الموسَّع عليـه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله بـه غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين فى عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :

الأول : غنىٌّ وفى سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شىء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وضعه الوظيفى ، بـل إلى وَضْعه ومـستواه الـمادى ، فيـشترى بمـا يتناسب معه ، ولا يطمع أن يـكون مثل زميله ؛ لأن لكل منهمـا قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقـة ، والتصرُّف الإيمانى المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويَرْضَى بمـا قَسَمه له ويعيش فى نطاقه غيـر متمرد عليـه ، يقول له الحق سبـحانه : لقد رضيت بقـدرى فيك فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُـشَاهَد لنا فى الحـياة ، والأمـثلة عليـه واضحـة ، فكم من أناس كانوا فى فـقر وضيق عيش ، فلمـا رَضُوا بما قَسَـمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدَّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبـة كل الخيبة أن ينسى الإنســان أنه خليفة لله فى الأرض ، ويسير فى حركة الحيـاة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

لمن استخلفك ، مَمْدود ممَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغترّ ، وإياك أنْ تعيش في مستوىً فوق المستوى الذى قدّره الله لك .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضلّ الكون كله ؛ لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُولاً ، فالذى وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً ، والذى ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنّة من سُنَن الله فى خَلْقِه لِيَدكّ فى الإنسان غرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقنى ، ولو متّعه بالصحة دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب اشفنى . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه محتاجاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالحاجة هى التى تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطى بحساب وبقدر ؛ لتستقيم حركة الحياة ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ .. (٢٧) ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لو لم يُوزِّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فَمنْ بُسِط له يستغنى عن غيره فيما بُسط له فيه ، ومَنْ

ضُيِّق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمكوِّن الخالق سبحانه.

وفى قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء]

ملمح لطيف : أى ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه ، ومع ذلك بَسَط لك حتى صِرْت تعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع[1] .

فإن كانت هذه حاله ﷺ فلا يستنكف أحد منا إنْ ضُيِّق الله عليه الرزق ، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع ؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال ، ورسم لنا المنهج الذى تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سَيْراً يُحقِّق له العيش الكريم والحياة السعيدة ، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التى يتطلع إليها .

أراد سبحانه أن يُحدِّثنا عن الحياة فى أصلها ، فأمر باستبقاء النسل ، ونهى عن قتله فقال تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ[2] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

---

(١) وقد كان هذا دأب بعض صحابة رسول الله ﷺ ، مثل أبى هريرة (البخارى ٦٤٥٢) ، وأبى سعيد الخدرى (أحمد فى المسند ٣/٤٤) .

(٢) الإملاق : الفقر . والإملاق : كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة . والمملق : الذى لا شيء له . [لسان العرب ـ مادة : ملق] .

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخلوا مسألة الرزق في حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهي حياته ، لكن تنتهي بنقْض البنية التي بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم في سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة : من مُولِّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصِّل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً في عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح في جسده بدونها .

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت ـ ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد ـ لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبي ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو مِلْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟!

إذن : المنهي عنه في الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلادَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى ، ولكن المشهور في استقصاء

التاريخ أنهم كانوا يَئِدون البنات خاصة دون الذكور ، وفى القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ ٩﴾ [التكوير]

لأنهم فى هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْناً وعُدَّةً فى مُعْترك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يَرَوْن فيهم العزْوة والامتداد . فى حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة فى ظِلِّ الفقر والعَوَز والحاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غِنَىً إلى شيء من المكروه فى عِرْضها ، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝ ٣١﴾ [الإسراء]

أى : خَوْفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من ملَق وتملّق ، وكلها تعود إلى الافتقار ؛ لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته(١) .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ۝ ٣١﴾ [الإسراء]

وفى هذه الآية ملْمح لطيف يجب التنبّه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردِّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝ ٣١﴾ [الإسراء]

---

(١) من معانى الملَق : الزيادة فى التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغى ، ورجل ملِق : يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه . وفى الحديث : « ليس من خلق المؤمن الملَق » . [لسان العرب - مادة : ملق] . وقد أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعزاه لابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشُّعب عن معاذ وانظر الفردوس بمأثور الخطاب للديلمى (٥١٥٨) .

أى : خَوْفاً من الفـقر ، فالفقر ـ إذن ـ لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُـحْتمل الحدوث فى مسـتقبل الأيام ، فالرزق مـوجود وميسور ، فـالذى يقتل أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ.. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أولاً : لأن المـولود يُولَد ويُولَد مـعه رزقـه ، فلا تـنشغلوا بهـذه المسألة ؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم .

ثم : ﴿ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُـقـدَّم على رزقكم أنتـم . ويمكن أن يُفْـهَم المـعنى على أنه : لا تقـتلوا أولادكم خَـوْفاً من الفـقـر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضـيح هذه المسألة ؛ لأن أعداء الدين الذيـن يُنقِّبون فى القـرآن عن مَأْخـذ يرونَ تعارضـاً أو تكراراً بين هذه الآية التى مـعنا وبين آية أخـرى تقـول : ﴿ وَلا تَقْـتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملكَة العربية فى فَهْمـه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جـامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج فى فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغوىٍّ .

وإذا استـقبلتم كلام الله استـقبالاً سليمـاً فلن تجدوا فيه تعـارضاً ولا تـكراراً ، فليـست الأولى أبلـغَ من الثـانيـة ، ولا الثانيـة أبلغ من الأولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتَا فى

النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق فى المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول :
﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما فى آية الأنعام : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

فلا بُدَّ أن نلاحظَ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع فى فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَىْ الآيتين ، وأغفلوا صَدْريهما ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنَّ صَدْرى الآيتين مختلفان :

الأولى : ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

والفرْق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع فى المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

أما التعبير الثانى : ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم . والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل : إن الآية تنهى أنْ يقتلَ الاب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنى الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم ؛ لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

خِطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذَركم .

وكلمة : ﴿خِطْئًا .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزْتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسى نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوِّب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التى يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع فى الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده ؛ لأنه ما يزال فى زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة فى امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التى تُحسَب على التلميذ ، وتنتهى المسألة بالنجاح لمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة[1] ، وتعنى الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشىء الثابت الذى استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أى : الخطوة التى جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[2] الشَّيْطَانِ .. ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشىء الثابت المستقر فى شريعة الله .

---

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطا فهو فعل معتل الآخر بألف منقلبة عن واو . ولذلك يأتى المضارع من الأول (يخطىء) - أما الثانى فيأتى (يخطو) .

(٢) قال الأزهرى فى المعتل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] : قرأ بعضهم خطؤات الشيطان من الخطيئة : المآثم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب - مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرّمه ليكون خليفةً له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذور الحياة في المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أَوْلَادَكُمْ) المراد بها البنون دون البنات ، وسلّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقي على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟!

إذن : هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة :

أولها : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض منك ، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأُبُوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

خلافة الإنسان لله فى أرضه ، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده ، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله فى الأرض ، أراد سبحانه أن يحمى هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً ، ويُؤثِره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليُوفِّر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرْضِي ، وصدق الشاعر حين قال :

إنما أوْلاَدُنَا أكبادُنا تمشِى عَلَى الأرْضِ
إنْ هبّتْ الريحُ على بَعْضِهم امتنعَتْ عَيْنى عَنِ الغُمْضِ .

لكن هذا النظام التكافليّ الذى جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب فى نسبة هذا الولد إليه ، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق ، وصراع داخلى مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طَعْن فى ذاته هو .

لذلك يُحذِّرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من هذه الجريمة النكْراء ؛

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. (٣٢) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والممنوع أن نتعداه .

وأما في النواهي ، فيُذيِّلها بقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكأن الحق سبحانه يريد ألاَّ نصلَ إلى الحدِّ المنهي عنه ، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظلّ على بُعْد من النواهي ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبي ﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »(١) .

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان ابن بشير .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفعْل نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذّر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى « الإدراك » ؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حُبُّها فهذا يسمى « الوجدان » أي : الانفعال الداخلي لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أي : عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع ؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » فلا يمكن فيها فَصْلُ النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهي

مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصْل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عِشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذى نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعانى مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدى إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[1] مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعانى عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدرى أنه واهم فى هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

(١) غض بصره : خفضه ولم يرفعه ولم يحدّق فيما أمامه ، أو كفّ بصره ولم ينظره . [القاموس القويم ٢/٥٦] .

وأعلم بحاله ، وما أمره بغضِّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو عليه نفسه .

لذلك قال ﷺ : « النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتى أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته فى قلبه »(١) .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء]

ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدى إليها ، فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها ؛ لأن مَنْ حَام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْكَ ممَّنْ يُنادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما علاَ ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقاً فى يوم من الأيام .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هى بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا فى بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التى لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفى الحديث النبوى : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »(٢) .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣١٤/٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى تلخيصه : « إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١١٤/١) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين . وأشار إليه الترمذى فى سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥) . وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

إذن : ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حرّم الخَلْوة في ذاتها ولكن حرّمهما ؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء] أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيُّهما أبلغ وأشدّ في التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهْى عن الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعني : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها في أي مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب - إذن - أشدّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا.. (١٧)﴾ [الزمر]

فهل تقول في هذه : إن الاجتناب أقلّ من التحريم ؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

الفاحشة : هى الشىء الذى اشتدَّ قبْحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة ؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وقدّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلّةً لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً ياتيها مَنْ ياتيها ؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمى طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التى يلتقى عليها الزوجان عقد القران الذى يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شكَّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب ، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعدْها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابَك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذى حدث ؟ وما الذى تغيَّر ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالذى يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التى تفعل فى النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول ولىُّ الزوجة : زوجتُكَ . ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدث فيها انبساطاً وانشراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً فى التكوين الذاتى للإنسان ، ولها أثر فى انسجام ذراته ، وفى كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التى يلتقى عليها الزوجان ، أنها تُحدث سيالاً بينهما ، هو سيَّال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرِّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفى هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثِّر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التى حددها الشرع بثلاثة أشهر[1] ، وهى المدة التى يهدأ فيها سيَّال الحلال فى نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

---

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة ، وهى المدة التى يصح للزوج المطلّق أن يراجع زوجته خلالها ، وهى أيضاً المدة التى إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] . أى : ثلاث حيضات .

أما فى حالة المتوفَّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة[1] ، والحكمة من الفارق بين العدَّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السَّيال ؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة فى زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلى ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفى الغريزى الذى يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذى يُولِّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث الحب والعِشْق الذى يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا ـ كما قلنا ـ أثر من آثار كلمة الله التى اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقى الزوجان فى راحة وهدوء نفسى ، ويسكن كل منهما للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ،

---

(١) أما عدة الأرملة التى مات زوجها ، فيقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤)﴾ [البقرة]

وصدق رسول الله ﷺ حين قال فى وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »[١].

وهذه الكلمة من الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ، ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكَد ومرارة لا تنتهى ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ فى محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكى ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى فى جواب رسول الله ﷺ ، وقد سُئِلَ كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها »[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله من حديث طويل وفيه « فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

وقال لآخر : « أنْ تَلْقى أخاك بوجه طَلْق »[1]

وقال لآخر : « أنْ تَبرَّ أخاك » .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبي ﷺ لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطي لكل سائل الجرعة التي تُصلِح خللاً في إيمانه ، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه ، فيُجري له التحاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذي جاءه يقول : يا رسول الله إنني أصلي وأصوم ، وافعل كل أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب في وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه ؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً في نفسه ، وانظر كيف عالجه النبي ﷺ :

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أتحب هذا لأمك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك ، فقال : « أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك ؟ أتحبه لبناتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، و حَصِّنْ فَرْجه »[1] .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَه عندي من الزنا ، ووالله ما همَمْتُ بشيء من ذلك إلا وذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرًا لا يستسيغه المريض غلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التي يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله في خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسيِّ المر ، كذلك يحدث في العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقي ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرَّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعي حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوي الذي يجب أن نسير عليه في قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذي تعلَّمناه من النبي ﷺ أن تكون سراً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً في حياة المجتمع كله وفي المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه في نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وزَانَه ، ومَنْ نصحه جَهْراً فقد فضحه وشَانَه[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون في الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عمَّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .

وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال والانحراف ،

---

(١) الشين : العيب . والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضى على سلامة المجتمع وأمْنه وسعادته .

ويكفى أنك إذا خرجتَ من بيتك فى مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذى يطاردك فى كل مكان ، فى الحجرة التى تدخلها ، وفى السرير الذى تنام عليه ، وفى دورة المياه التى تستعملها ، الجميع فى رُعْب وفى هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار فى الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةٌ لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفَّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهلَع من أمراض شتَّى لا ترحم ، ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وها هى الأحداث والوقائع تُثبت صدْق هذه الآية ، وتثبت أن أىّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نكدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم فى الآخرة .

والآن وقد ضمنَّا سلامة الأعراض ، وضمنَّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأمَنُ فيه الإنسان على هذا